واخيراً استدعي راندولف في إحدى الأمسيات الى قصر جبل العصافير الذي يقع خارج موسكو وبقي ثلاث ساعات في محادثة مع إيڤان . وعما دار في هذا الحديث بقي السيد توماس راندولف متكتماً لسوء الحظ .

يمكننا فقط أن نفترض انه أعطى لإيڤان انطباعاً خاطئاً وهو يظن أن من الأفضل له كسب وده والحصول على امتيازات تجارية من أن يعرض للخطر كل شيء بإفصاحه له عن الحقيقة الفظة . ومع ذلك كان يوجد دائماً سبب وجيه لرفض إليزابت الزواج من إيڤان وهو أنه كان متزوجاً بالفعل. وكان يمكن التلاعب بملك بكل يسر وتسليته بمعسول الكلام عندما يعرض التخلص من زوجته ليتخذ بدلاً عنها زوجة أخرى . على كل حال كان إيڤان مسروراً مما قاله له راندولف ، فربما أصبح الوضع أكثر وضوحاً بالنسبة لإليزابت إذا ماتت القيصرة ، وبخاصة إذا كان موتها طبيعياً .

وبما أنه كان خفيف العقل فيما يتعلق بشؤون البذخ وبأموره الشخصية فان ايفان أعار أذنا صاغية لطلبات الامتيازات الموسعة . وهكذا وقع معاهدة جديدة ضمن بموجبها سلامة الطرق البرية حتى الاراضي الفارسية وبخارى ومنح الاذن ببناء مستودعات أخرى وأطلق سراح بعض المسجونين من الانكليز ونظم التجارة مع ليڤونيا . وفي الفاتح من سبتمبر من العام نفسه ماتت القيصرة بالسم على ما يقال .

فإذا كانت القيصرة قد سممت فإن الأكثر احتمالاً أن يكون القيصر نفسه هو المسؤول عن تسميمها . ولم تكن القيصرة تلعب في السياسة أي دور وغدا القيصر غير مهتم بمفاتنها منذ زمن طويل ولذلك كان الحداد الذي أعلن عليها نوعا من السخرية . واعلن القيصر بنفسه أن القيصرة ماتت بالسم ولم يعارض في ذلك أحد ، بقي أن يعرف من الذي كان موضع الاتهام .